من وراء حجاب

للأستاذ محمود محمد شاكر

أخى الأستاذ الزيات :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد، فقد أكرمتنى ودعوتنى لكتابة مقالتى لعدد الهجرة من الرسالة ، فجعلتُ أماطل الساعات كمادتى حتى تضطرّنى إلى مأزِق أجد عنده مفرًّا من حمل القلم ، والإكباب على الورق ، وترك الزمن يعدو علىّ وأنا قارٌّ فى مكان لا يتغير وزمان لا يتحول . فلما كارب الوقت وأزفت الساعة ، فزعت إلى ذلك الكتاب القديم الذى طال عهد « الرسالة » به ، وهو « مذكرات عمر بن أبى ربيعة » ، حملت الكتاب حريصاً عليه ، ووضعته على المكتب بين يدىّ ، وترفقت بصفحاته وأنا أقلبه كما يقلب العاشق المهجور تاريخاً مضى من آلام قلبه . ووقعت على ورقة حائلة اللون قد تخرّمها البِلى ، وإذا فيها هذه الأبيات الثلاثة ، لم ينل منها شىء ، لا تزال ظاهرة السواد بينة المقاطع :

« فصروف الدهر فى أطباقه ... خِلْفَةٌ فيها ارتفاع وانحدارُ
بينما الناس على عليائها ... إذ هوَوْا فى هوّة منها فغاروا
إنما نعمة قوم مُتعة ... وحياة المرء ثوب مستعارُ »

لم أدر لِمَ نقل « عمر بن أبى ربيعة » هذه الأبيات فى مذكراته ، فإنها قائمة وحدها ليس قبلها ولا بعدها شىء يدل على ما أراد من ذكرها ، فجعلت أداور الأوراق لعلى أبلغ مبلغاً من توهُّم خبرها الذى سيقت من أجله ، وجعل معناها يداور قلبى ويساوره حتى كفّت يدى عن الحركة ، وسكن بصرى على مكانها ، وأحسست كأن القدر قد نام فى ظلالها كالمارد الثمل طرحه طغيان السكر حيث استقر ، وأطاف بنفسى جو من السكون والرهبة والجلال ، وأخذت أستغرق فى تأمل هذه الحياة المتكررة المتطاولة الدائبة منذ عهد أبينا الشيخ آدم رحمه الله إلى يوم الناس هذا . فآنست فترة تأخذنى ، ثم نعسة تتغشّانى ، وسبحت فى غمرة طويلة لذيذة لا عهد لى بمثلها منذ عَقَلتُ .

وإذا أنا أفضى من غمرتى إلى ميدان فسيح أخضر الجوانب متراحب الأرجاء ، وإذا مسجد بعيد يستقبلنى كأحسن ما رأيت من مسجد بناء وبهاء ، قد تباعدت أركانه وتسامت فى جو السماء مآذنه ، ويبرق بابه ويتلألأ شعاع الشمس عليه . فقصدت قصده ، ولم أكد أدنو حتى رأيت جموعاً غفيرة من الخلق يستقبلون الباب خارجين ، فى ثياب بيض وعمائم بيض كأنها غمام تزجّيه الرياح . فوقفت وسألت أول من لقيت : ما الذى جمع الناس ؟ قال : إنه الشيخ أيها الفتى . قلت : فمن الشيخ يرحمك الله ؟ قال : غريب والله ، إنه الشيخ أبو جعفر الطبرى إمام أهل السنة ، وشيخ المفسرين ، وعمدة المحدثين ، وثقة المؤرخين ، ردّ الله غربتك يافتى . قلت له : جزاك الله خيراً ورضى عنك وأرضاك ، أترانى أدركه الساعة ؟ قال : هو رهين هذا المسجد لا يبرحه ، فادخل تلقه .

ولم أزل أحتال للدخول وأمواج الناس تتقاذفنى عن الباب حتى كدت أيأس من لقاء الشيخ ، وظننت أنى لو بقيت دهراً لم تنقطع هذه الأمواج المتدفقة من باب المسجد . وظللت أزاحم حتى بلغ منى الجهد ، وانتهيت إلى صحن المسجد وقد انفضّ جمع الناس ، ولم يبق فيه غيرى . وجعلت أسير وألتفت وأنظر فى مقصورة بعد مقصورة ، حتى رأيت بصيصاً من ضوء فى مقصورة بعيدة ، فلما وافيتها ، وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، رأيت مسرجة معلقة وحجرة واسعة ، وآلافاً مؤلفة من الكتب قد غطت الجدران . فاستأذنت ثم سلمت فلم أسمع مجيباً ، فدخلت ، وإذا فى جانب منها شيخ ضافى اللحية أبيضها جميل الوجه ، قد اتكأ وأخذته سنةٌ من نوم ، وقد مالت عمامته عن جبين يلمع كأنه سُنّة مصقولة من ذهب ، وبين يديه كتب وأوراق مبعثرة

أو مركومة ومحابر وأقلام .

سرقت الخطو حتى قمت بين يدى هـذا الشيخ النائم ، ثم جلست وجعلت أقدم ثم أحجم أريد أن أمسك شيئاً من ورقه لأقرأه ، ثم عزمت فأخذت ما وقعت عليـه يدى ، فإذا هو تتمة تاريخ أبي جعفر الطبرى الذى كان سماه « تاريخ الأمم والملوك » ، وكان الجزء الذى فيه يبدأ من سـنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف من الهجرة (سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٤٦م) ، فانطلقت أقرأ تاريخ هذا الزمن ومابعده . وعسير أن أنقل لك كل ما قرأت ، فسأختارلك منها نتفاً تغنى ، كما كتبها الإمام أبوجعفر ، وبعضها منقول بتمامه ، وبعضها اختصرت منـه حتى لا أطيل عليك . قال أبو جعفر :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ما كان من إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح أبواب فلسطين لشذاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلىَّ السُّدّى ، وهو مقيم هناك فى أمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذى كان ادّعاءُ من إيثاره العقل على الهوى فى هذا الأمر ، إنما كان حيلة مخبوءة أراد بها أن يغرر بالبلاد العربية والإسـلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو فى ذلك إنما يعمل للظفر بمعونة اليهود فى الانتخاب الآتى للرياسة . ولما كان هواه هو الذى يُصرّفه ، فقد علم أنه طامع فى الرياسة حريص عليها ، وأن اليهود فى أمريكا هم أهل المال ، أى أهل السلطان ، أى هم الأنصار الذين إذا خذلوه فقد ضاع . قال السدّى : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى فى أمريكا يستنكرون ما كان منه ومن قرار مجلسيه ، ويرون أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البشر ، ليبلغ بها القوى مأربه من الضعيف المغرور بهذه الرقية الساحرة التى يدندنون بها فى الآذان . وقد أخبرنى الثقة أن الرئيس ترومان قد أوحى إليه بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قومٌ أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويلح فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون فى أنفسهم قوة على تغييره أو الانتقاض عليه ، وأن الزمن إذا تطاول عليهم فى شىء ألفوه ولم ينكروه . فإذا دام دخول اليهود فلسطين ، وبقى الأمر مسنداً إلى الدولة المنتدبة (وهى بريطانيا) ، وانفسح لحق اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجح ، وألح على العرب دائماً إجماع الدنيا كلها (أى الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية فى فلسطين حقيقة ينبغى أن تكون وأن تتم كما أراد الله ، فيومئذ يلقى العرب السِّلَم ، ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشئهم على إلف شىء قد صبر عليه آباؤه ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة فى تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم — وهم عند العرب والمسلمين — أهلُ القدوة .

وفى هذه السنة كتب إلىَّ السُّدّى أيضاً يقول إنه لقى أحد كبار الدعاة من اليهود ، وكان لا يعرفه ، فحدثه عن أمر اليهود فى فلسطين ، فقال له الداعى اليهودى : لا تُرَع ، فنحن لا بدّ منتهون إلى ما أردنا ، رضى العرب أم أبوْا . وما ظنُّك بقوم كالعرب خير الحياة عندهم النساء ، وقد قال نبيهم : « حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلتْ قُرَّة عينى فى الصلاة » ، ولقد سلطنا عليهم بنـات صهيون ، وهن من تعلم جمالا ورقة ، وأبداناً تجرى الحياة فيها كأنها نبع صافٍ يتفجر من صفاة شفافة كالبلّوْر . وهن بنات صهيون دلال وفتنة ، وعطر يساور القلوب فيسكرها ويذهلها ثم يغرقها فى لذة يضن المرء بنفسه أن يصحو من خمارها أو نشوتها ، منصرفاً عن أمر الدنيا كله لا عن الصلاة وحدها التى جعلت قرة لعين نبيهم . فهن فى فلسطين ، وهن فى الشام ، وهن فى مصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش ، ولولا تلك البقعة العصية التى لا تزال تخشى بأسها على ضعفها وقلتها وفقرها — أعنى الحجاز وما جاوره — لقلت لك : لقد قضينا على هذه العرب ، وعلى هذا الدين الدخيل الذى سرق منا التوحيد وادّعاه لنفسه ...

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ما كان من اجتماع ملوك العرب وأمرائهم ووزرائهم بعد الحج من السنة التى قبلها ، اجتمعوا فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرَّ قرارهم على أن يعلنوا للناس جميعاً ويتذروهم بما

رأوا وبما أجمعوا عليه :

الأول : أن ميثاق الأطلسي ومواثيق الدول الكبرى كلها تغرير بالضعفاء وتلعب بعقولهم .

الثاني : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورائها بلاد العرب والمسلمين جميعاً تظاهرها بالمال والولد .

الثالث : أن الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة النكرة التي اقترفها اليهود ينبغي أن تقابل بالصدق والصراحة لا بالغيلة والغدر .

الرابع : أن الأمم العربية والإسلامية تعلم أن ليس لديها اليوم من السلاح ما يكفي لقتال الأمم المعتدية التي تظاهر اليهود بالمال والسلاح ، ولكنها ستقف كلها على بكرة أبيها صفاً واحداً تقاتل بما تصل إليه يدها من مقاطعة ومنابذة وكبرياء . وأنها تفعل ذلك ما استطاعت ، ولكنها لن تظلم يهودياً ولا نصرانياً ولا أحداً من أهل الأديان ، ولن تضطهد بريئاً ولا لاجئاً ، وأنها لن تقنع بشيء بعد اليوم إلا بجلاء المعتدين والمستعمرين من بلادها ، وجلاء اليهود عن أرض فلسطين ، ومن شاء أن يبقى فيها من يهود ، فله ما لنا وعليه ما علينا .

الخامس : أن الأمم العربية والإسلامية قد عزمت على أن تبدأ منذ هذا اليوم في انتخاب مجلس عام تمثل فيه جميعاً ، وهذا المجلس هو الذي سيضع الدستور العام للدول العربية والإسلامية ، حتى إذا تم وحدت هذه الدول سياستها الداخلية والخارجية ، وصارت يداً واحدة في العمل ، لتقاوم بذلك اتحاد الأمم الديمقراطية الغربية ، التي لم تزل تريد أن تجعل الشرق سوقاً وأهله عبيداً .

[ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

ففيها أراد اليهود في بعض البلاد العربية أن يظاهروا إخوانهم في فلسطين ، فأجمعوا على جعل يوم السبت كله منذ الصباح يوم عطلة فأغلقوا دكاكينهم ، ورفعوا عليها أعلام الدولة الصهيونية المجترئة ، واجتمعوا في بيعهم وجمعوا مالاً كثيراً بلغ عشرين مليوناً من الجنيهات لمساعدة المصانع التي كادت تغلق أبوابها من جراء المقاطعة التامة التي أحسنت الأمم العربية توجيهها وتدبيرها .

ومما كان من ذلك في هذه السنة اجتماع المؤتمر العام لنساء العرب في دمشق ، وقد قررن أن تعود المرأة إلى بيتها عاملة على إنشاء جيل من البنين والبنات لم تفسده الشهوة التي استبدت بالناس في تقليد ذلك الفجور القبيح الذي عملت يهود على نشره في بلادهن من زينة وتبرج ورقص وتحلل من أخلاق السلف ، وذلك لكثرة ما وقع من حوادث هدمت بيوتاً عزيزة وأسراً كريمة ، وأفضت إلى ضروب من المآسي لم يطق أحد عليها صبراً .

وفيها أيضاً أجمعت الصحف العربية والهندية الإسلامية والتركية والفارسية مقاطعة الإعلان اليهودي . وكل صحيفة تخالف هذا الإجماع يمحى اسمها واسم رئيس تحريرها ومحرريها من سجل نقابة الصحافة ، ولا تفسح لأحد منهم فرصة حتى يعمل في صحيفة أخرى بعد هذه المخالفة .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

اشتعلت نيران الحروب في الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية في مكة المكرمة ووحدوا قيادة الجيوش العربية ، ولكن لم يلبث سفير بريطانيا في مصر وسفير أمريكا أن أرسلا رقية إلى المجتمعين في مكة يطلبون وقف الحركات الحربية التي سموها (ثورة) ، ورغبوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسة الروسية التي تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين .

وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التي يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا ، لن تتدخلا في الخلاف الناشب بين الفريقين ،

وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة تُرسل من بلادها إلى فلسطين . من مال أو سلاح …

[ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

تمّ استخدام الذرّة وانفلاقها في كل شيء ، وحدث في زراعة البلاد انقلاب عظيم ، إذ أصبح من اليسير استنبات نبات الصيف في الشتاء ، ونبات الشتاء في الصيف . وقد بدأ ملوك العرب أعظم عمل في التاريخ ، وهو استخدام أسلوب جديد يحوّل الرمالَ العاقرة إلى أرض خصب وافرة الزَّرع ، وقد نفّذ هذا في جزء كبير من صحراء جزيرة العرب . أما في مصرَ والسودان ، فقد تمّ توزيعُ ماء النيل وضبطُه حتى لا يضيع من مائه إلا أقل قدر ، وبذلك أتيح لمصر أن تُنشيء ثلاثة فروع جديدة شقّتها في الصحراء الشرقية حتى أفضت إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) ، وصار ما بينها أرضاً مَريعة ذات خصب . وبذلك سيتاح لمصر أن يبلغ عدد سكانها أربعين مليوناً من الأنفس في أقل من عشرين سنة .

ومما كان من ذلك نهضة عامة في سياسة البلاد العربية ، جعلت الرأى العام العالمى يناصر القضية العربية مناصرة تامة في أكثر بقاع الأرض …

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

كثرت حوادث الاغتيال والفتك في كثير من البلاد العربية والأجنبية ، وقُتل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير ، واستفحل الشرّ استفحالا عظيما ، حتى ثارت الصحف الإنجليزية والأمريكية وطالبت حكوماتها بإعلان قرار واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة في سبيل السلام تقتضى أن تُبذل النصرة الكاملة للعرب وللقضية العربية ، وأن تتعاون الدول على ردّ العدوان الصهيونى الذى صار طغياناً شديداً في جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى على الدول جميعاً أن تضحى في سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف في أغلالها …

[ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ما كان فيها من الأحداث :

كتب إلى السُّدِّىّ يقول : إن أمريكا قد قررت إجلاء اليهود من أرضها كلها ، وأن تستصفى أموالهم ، ولا يبقى فيها إلا علماء اليهود وحدهم إن شاءوا . ومن المنتظر أن تفعل بريطانيا وسواها من الدول مثل ما فعلت أمريكا .

وفيها ثار العمال اليهود في فلسطين على أصحاب المصانع اليهودية ، وذلك من جرّاء بوار أكثر التجارة اليهودية التى نهكتها المقاطعة العامة في بلاد العرب والمسلمين ، ولقلة الأجور ، ولكن الحكومة اليهودية ضبطت الأمر وبذلت الأموال ، وجنّدت جيوشاً عظيمة العدد والعدد . وحدثت أحداث عظيمة في أكثر بقاع الأرض . حتى وقع التنابذ بين الدول الكبيرة التى لا يزال لليهود فيها سلطان عظيم .

وأخوف ما يُخاف أن تقع في هذه السنة حرب عالمية تستخدم فيها جميع الأسلحة الجديدة التى يخشى أن تكون على العالم دماراً وخراباً .

* * *

واستيقظ الشيخ من غفوته ، ونظر إلىّ نظرة المتعجب ، وقال من أنت ؟ وما تفعل ؟ فانتبهت فزعاً ، وإذا أنا أقرأ في تفسير الشيخ أبي جعفر الطبرى تفسير قوله تعالى : « وقالتِ اليهودُ يدُ الله مَغلولةٌ غُلَّتْ أيديهم ولُعِنوا بمَا قالوا ، بل يَداهُ مبسُوطتان يُنفقُ كيفَ يَشاء ، وليَزيدَنّ كثيراً منهم ما أُنزلَ إليكَ طُغْياناً وكفراً ، وألقيْنا بَينهم العداوةَ والبغضاء إلى يومِ القيامةِ كلما أوقدُوا ناراً للحربِ أطفأها اللهُ ، ويسعون في الأرضِ فَسَاداً واللهُ لا يُحبُّ المفْسِدين » .

محمود محمد شاكر